الفارابي

بين ما يروى عنه ويروى فيه

الدكتور
عبد الرزاق محيي الدين

السادة الاعلام

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فما ابغي من كلمتي هذه اكثر من مشاركة متواضعة وبقدر متواضع في المناسبة الكريمة التي هيأتها وزارة الاعلام لتكريم علم من اعلام الانسانية ، تصله بالعراق مهاجرة من أجل التعلم ، ومواطنة من اجل التعليم ، انتهت المهاجرة ان عاد ابنا من ابر ابنائها وانبغهم ، تمثلا لثقافاتها ، واستيعاباً لما فيها او وفد عليها من علوم وفنون ، وانتهت به المواطنة ان عاد المعلم الثاني لجملة من تعلم المنطق والفلسفة في جيله ، وفي الاجيال التي جاءت من بعده ، لاتستثنى جنساً او وطناً او ديناً او مذهباً من مذاهب الفلسفة والاجتماع . فحيثما يكتب عن حضارة العرب او المسلمين او الشرق بجملته او الانسانية على اختلاف اقوامها ومواطنها نجد اسم الفارابي في طلائع القائمة ، منعوتاً باللقب الذي تفرد به ، وفي المقام الذي تبوأه بعد المعلم الاول ارسطو .

وحين تتنادى الامم الى الاحتفاء به ،وتتعادى المواطن الى احتضانه يكون من حق العراق بل من واجبه ، ان يكون في السابقين الى ذلك ، والمبادرين اليه ، تمسكاً

(١) بحث القي في مهرجان الفارابي الذي اقيم في بغداد عام ١٩٧٥ .

بحق له ، او وفاء لدين عليه ، فقد أخذ الفارابي من العراق وفيه غالب ما أخذ، واعطى عن العراق ومنه غالب ما أعطى فكان بذلك عراقي الاخذ والعطاء : فيضاً انسانياً ما يزال يحتفظ بسخاء البذل والعطاء .

وما احسب شيئاً ابلغ في الاحتفاء به من عرفانه ، واستجلاء امره بتحرير سيرته ، وفحص آثاره ، واحيائها احياءً ينفي عنها ما علق بها من غموض وابهام، او داخلها من تحريف وتحوير فقد اضطرب القول في سيرته اضطراباً لايصح الابقاء عليه، بعد هذه المؤتمرات والندوات والبحوث والدراسات ، اختلف الناس في آثاره كمية ونوعية ، اختلافاً ابقى على الكثير منها عرضة للنفي والاثبات ، ومجالا للنعت بالتخمين والظنون .

ومع ان كشفاً قيماً آتته الدراسات الحديثة في التعريف بسيرة الرجل وتقييم آثاره . فان جانباً ملحوظاً مما اثر عن سيرته ظل يتردد وهماً على الاذهان ، وظنا لايغني عن الحق شيئاً ، واستمر يعلق بسيرة الرجل ، فيعرض الحقيقة مغشاة بوهم ، والحق مقروناً بالباطل وسوف أعرض في كلمتي المتواضعة مسائل قليلة مما اثر عن سيرته او مما نعت به نتاجه من قضايا ما يصح ان تبقى مأثورة بعد عهد من دراسة يفترض فيها التمحيص والتحرير .

١ــ فمن هذا الذي لا يقبل بل لا يصح ان يورد في تاريخه بعد الان انه كان يعرف من اللغات سبعين لغة غير العربية ، وانه تعلم العربية بعد ان دخل بغداد؟! فما هذه اللغات السبعون التي عرفها وتعلمها ، وظل ينتظر تعلم العربية حتى ورد على بغداد ؟ .

ان العربية كانت يومها لغة الدولة التي تتفيأ الراية العباسية ، ومنها بلاد ما وراء النهر ، بل كانت اللغة العالمية التي لا بد منها لمن يريد ان يتعلّم علماً ، او يعلم علماً ، شأنها في ذلك شأن اللغات الحديثة الحية في العصر الحاضر مثل الانكليزية والافرنسية وغيرهما مما يشبههما انتشارا ومقاماً في العلم، فاذا جاز لانسان يبغي علماً في عصره ان يتجاوز لغته الام الى لغة او لغات أخرى كانت العربية الاولى او الثانية فالثالثة على ابعد الفروض ، فلماذا زهد الفارابي في تعلمها حتى حذق سبعين لغة سواها ؟

والامر المستبعد جداً ان يكون الفارابي تعلم االعربية بعد وفوده على بغداد ، وانه بدأ دراسته الفلسفية بعد ان اتقن العربية في بغداد ، اذ ان دخوله الى بغداد حسبما تقرر الكتب التي عينت حداً لوصوله كان بعـــد ان بلغ الخمسين من عمره ، وشيء مستبعد عادة ان يمر خمسون عاماً من عمره وهو يجهل العربيـــة جهلا تاماً ، ويجهل العلوم الفلسفية جهلا كلياً ، ثم يبلغ من العربيـــة تلك المنزلـــة الرفيعة من الاداء الفصيـــح السليم ، والعبارة الدقيقة المركزة ، يؤدي بها غوامض فلسفة ارسطو ، ويشرحها شرحاً وافياً مبسطاً يبلغ به النهايات القصوى من حسن العرض ودقة التصوير .

الشيء المنطقي المقبول ان يكون الفارابي تعلم العربيـــة منذ نشأته ، عرفها بحكم نشأته الاسلامية ، وما تقتضيه تلك النشأة من أداء الفروض بالعربية ، ومن تلاوة للقرآن بها ومن سماعها في الجامع خطبة خطيب ، وحديث محدّث عن الرسول ، وبلاد ما وراء النهر كانت يومها عامرة بالفقهاء والمحدثين والشعراء فمن المستبعد جداً ان يكون الفارابي عاش شبابه وشطراً من كهولته في عزلة عما يدور من حوله من تلاوة القرآن ، وسماع حديث الرسول ، وكتب الفقه والقضاء وان يكون الروح الاسلامي المتأصل الراسخ في اعماقه قد داخله بعد ان وصل الى بغداد وانه كذلك ظل في عزلة تامة عن علوم المنطق وكتب الفلسفة الى ان وصل الى بغداد

لقد جاء في بعض النصوص التاريخية انه كان في اول امره قاضيا ، فماذا يعني اول امره ؟ أول امره كان عند دخوله الى بغداد ، وقد جاءها وهو لا يعرف العربية ولا العلوم العقلية انما وفد عليها طالباً يتعلم العربية على ابن السراج والمنطق على ابى بشر متى بن يونس ويوحنا بن جيلان في حران .

اننا نستبعد ان يكون بدأ يتعلم العلوم العقلية بعد وصوله الى بغداد وهو في ذلك السن المتأخر ، كما استبعدنا ألا يكون قد تعلم العربية والعلوم الاسلامية فقهاً وحديثاً وجملة ما يتصل بمبادئ الاسلام قبل هذا التاريخ وقبل ان يدرس على ابي بشر متى بن يونس ، ويوحنا بن جيلان .

إذ لايمكن ان يؤدي تعلم الفلسفة اليونانية وعلوم الاغريق على يد من قدمت من اساتذة السريانية الى الايمان الراسخ بالاسلام وعقائده وادابه وان ينتهي من تلك الدراسة وحـــدها الى تحرير فلسفة اسلامية تأخذ من الفلسفات الاغريقيـــة واليونانية ما يتفق ويتلاءم مع اصول الاسلام،وينفي ما يختلف ويخرج عن اصول الاسلام حتى عند ابرز الفلاسفة الاسلاميين .

المنطق المقبول ان تكون الاعوام الخمسون التي سلخهامن عمره مجهول الاثر فيما قدر المؤرخون ، مقيما في بلدة « فاراب » او متنقلا بين المدن الاسلامية فيما وراء النهر الىخراسان ، اعوام حياة دراسية جادة لعلوم العربية وعلوم القرآن ، تعلم فيها مباديء العربية ، وعلوم القرآن ، والفقه والحديث ، وجعلته مظنة لأن يقال عنه : انه كان في أول أمره قاضيا،وانه كذلك درس في أعوامه الاولى شيئاً من المنطق والفلسفة ، حتى اذا وفـــد على بغداد درس النحو دراسة تخصص على ابن السراج ، ودرس المنطق والفلسفة دراسة تضلع على ابي بشر « متى بن يونس » ويوحنا ابن جيلان .

ويكون بذلك قد واجه ابن السراج بطاقة مجزية تهيؤه لتفهم دقائق العربية، وواجه الفلسفة الاغريقية والمنطق الارسطي بمناعة واقية زودته بهاالدراسات الاسلامية وبحيث حمته من الانجراف بالفلسفات الملحدة او ، المشككة ، ومكنته من المواءمة بينها وبين ما تأصل في نفسه من عقيدة اسلامية تلقاها من نشأته ، ووثقها بدراساته

وهذه سيرة كثير من اعلام اللغة والدين والفلسفة ، يبدأون دراساتهم في مدنهم وفي أقطارهم حتى اذا بلغوا حظاً وافرا من علم وخشوا وقوفاً عند ذلك ، أو ضياعاً اذا ظلوا في مدنهم هاجروا الى بغداد لاستكمال التحصيل أو كسب الشهرة والنبوغ في عاصمة الخلافة الاسلامية .

وشبيه بما قدمت ما قيل في سيرته انه كان في أول امره ناطوراً في بستان بدمشق فأي عهد يسمونه أول امره ؟

المعروف انه هاجر من بغداد الى دمشق بعد فترة طويلة اقامها في بغداد ، وانه لم يصل الى دمشق الا في أواخر سنيّ حياته وبعد ان الف معظم مؤلفاته،وتجاوزت

شهرته بغداد الى ما وراءها من اقطار العالم الاسلامي ، فهل يصدق مع ما بلغ من منزلة ومن ذيوع ذكر انه ينزل دمشق ناطوراً في أحد بساتينها ، يستضيءُ بالقنديل التي يستضيءُ به الحارس ، وانه بقى على ذلك مدة ، ثم انه عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه ، وصار أوحد زمانه وعلامة وقته .

الم تسمع «الشام» بالفارابي وما ظهر من مؤلفاته يوم كان ببغداد ، وهل كانت بغداد واعلامها وفلاسفتها وشعراؤها بمنأى عن مسامع الشام ، وعن عيون ابنائها الى ان يشتهر أمره ؟

فاذا ثبت مما كتب هو عن مدينته الفاضلة (السياسة المدنية) انه بدأ تأليفها في بغداد واكملها في مصر ، بعد هجرة لها من دمشق .

واذا ثبت والأمر ثابت ، بأن هجرته الى مصر كانت قبل وفاته بعام او عامين باجماع المؤرخين وان عودته الى دمشق واقامته فيها كانت ضمن هذه الفترة . فكم بقي له من أيام الشهرة التي ظهر فيها فضله وعظم أمره .

واغرب من ذلك ما يرويه ابن خلكان عن بداية علاقة الفيلسوف بالامير الحمداني سيف الدولة ، فقد كانت بداية نابية لا تتناسب ومقام فيلسوف سلخ من عمره أكثره ، يعلّي من أدبه وعقله وعلمه ، حتى بلغ منزلة فاق فيها اعلام زمانه .

وملخص القصة التي تروى ، انه ورد على سيف الدولة — وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف ، فادخل عليه وهو في زي الاتراك ، — وكان ذلك زيه دائماً — فوقف فقال له سيف الدولة : اقعد ، فقال الفارابي : حيث أنا أم حيث أنت ؟

فقال الامير : حيث أنت .

فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه . وكان على رأس سيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص ، يسارّهم به قلّ ان يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : ان هذا الشيخ قد أساء الادب ، واني مسائله عن أشياء ان لم يعرف بها ؟ فاخرقوا به .

فقال له أبو نصر بذلك اللسان : اصبر فان الامور بعواقبها فعجب سيف الدولة وقال : اتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم، أحسن سبعين لسانا ، ثم أخذ الفارابي يتحدث حديثا بزّ فيه الحاضرين ، فصرفهم سيف الدولة ، وخلا به وقال له : أتأكل ؟ قال : لا .

فهل تشرب ؟ قال لا .

فهل تسمع ؟ قال نعم .

فأمر سيف الدولة باحضار القيان فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك احد منهم آلته الا وعابه ابو نصر ، فقال : له سيف الدولة : هل تحسن من الصنعة شيئاً ؟

قال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها ، واخرج منها عيدانها وركبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من في المجلس ، ثم فكها وركبها وضرب بها فابكى كلّ من في المجلس، ثم فكها وغير تركيبها ، فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياما وخرج .

لا اريد ان اعلق على هذه القصة فهي غنية عن التعليق ، ولكني منوه بما تلحقه هذه القصة من أذى بسيرة الحكيم الفيلسوف .

ومن واد آخر وان كان مما يفتات به على الفيلسوف الفارابي ما ذهبت اليه بعض الدراسات المحدثة من صلة علم النحو العربي بعلم المنطق اليوناني ، ناسبة هذه المقالة الى الفارابي ، وداعمة له بالمقولة الشائعة من ان النحو منطق العربية وان المنطق نحو اليونان وأن كتاب الفارابي « كتاب الحروف » يكشف عن أثر المنطق بالنحو العربي ، متجاوزة من هذا الى القول باقتباس النحو من علوم اليونان .

وتأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني لايصح حتى لو ذهب اليه الفارابي فمن يعرف النحو العربي ومصادر أخذه وانتزاعه ، ومهمته من صون اللسان العربي عن الخطأ في اعراب الكلام ثم يعرف مصادر المنطق ومبادءه ومهمته من صون الفكر عن الخطأ في الاحكام يؤمن بان النحو لا موضوعاً ولا غاية من المنطق في شيء وان المنطق لا موضوعاً ولا غاية من النحو في شيء .

فليس في مباحث النحو وشواهده ما يرجع فيه الى قياس منطقي او يستشهد فيه بكلام منطقي .

وكل ما في الامر ان صلة تنشأ بين المنطق ومادة المفردة العربيـــة حين يترجم المنطق الى العربية ، او يعلم المنطق بالعربية .

فما لم تفهم معاني المفردات العربية ، وتحدد مقدماً مدلولاتها الاصطلاحية فان ترجمة اي علم من العلوم — ومنها المنطق — غير ممكن لمظنة اللبس في الفهم ، وعدم تحديد المدلولات .

فاذا كان المراد بالصلة بين المنطق واللغة العربية هذا المعنى فهو صحيح وقائم ، ولكنها ليست صلة بالنحو ولا خاصة بالمنطق اليوناني بل هي قائمة بين اللغة العربية وجملة العلوم التي تترجم اليها ، بل هي قائمة وحتمية القيام بين اللغة العربية وعلوم العربية نفسها بما فيها النحو والصرف فهل يكون النحو عندها متأثراً بهذه العلوم لمجرد انها اقتبست من العربية مصطلحاتها ، واوجدت لها مداليل خاصة بها .

أإذا الف باحث منطقي عن معنى التصور ، والتصديق ، او مدلول الموضوع والمحمول ، او الفرق بين النوع والجنس والفصل كان ذلك ذا اثر على النحو.

والذي في مؤلفات الفارابي من تعريف لبعض المداليل المنطقية كتحديد السؤال بكم أو كيف او متى ، وحاول التفريق بينها . وزاد على معناها اللغوي معنى آخر في الاصطلاح المنطقي او الفلسفي صار النحو العربي متأثراً بالمنطق اليوناني

ان العبارة التي وصل بها الفارابي بين المنطق والنحو جاءت واردة بسبيل توضيح مهمة المنطق في صون الفكر عن الخطأ مقيساً ذلك بمهمة النحو في كونه صائناً للسان عن الخطأ في اعراب الكلام وتحديد مواقعها من الاعراب .

بل ان الفارابي قرر في أكثر من موضع حاجة الدراسات الفلسفية والمنطقية الى تعلم العربية تعليماً يبدأ بتحديد المعاني اللغوية للمفرداتوالى تحديد معاني الجمل بعد تأليفها من تلك المفردات ، واعتبر ذلك ضرورة واجبة لتعلم الفلسفة والمنطق بالعربية .

ولكن هذا التقرير منه لا ينبغي ان يفهم بأنه دعوى تأثر النحوالعربي بالمنطق اليوناني .

ومن بين المسائل التي ما تزال بحاجة الى بت وقطع ، قضية اسلوبه ومكانه من الوضوح والسلامة ، او الغموض والتعقيد، ومن التركيز والدقة الى التكرار والاعادة ، فقد عرفه الاقدمون بالوضوح والتبسيط والدقة والتركيز حتى عدّوه المثل الاعلى في ذلك ، ولعل تلقيبه بالمعلم الثاني لا يخلو من المماع لذلك بل من تصريح فيه .

ولقد قرأت آثاراً مختلفة في موضوعات مختلفة مما كتب الرجل فالفيت — على استثناء لبعض النصوص المأثورة محرفة ، او مقتبسة محرفة او مقروءة من غير ذي وقوف على مسائل المنطق والفلسفة — ان آثاره تنقسم الى اقسام ثلاثة ، يختلف الاسلوب فيها باختلاف موضوعاته وما تقتضيه طبيعة الموضوع الذي يتناوله .

فحيث يكون البحث في قضية منطقية صرفة ، أو في تحديد معنى فلسفي نظري يجيء اسلوبه مركزا موجزاً ، متسلسلا تسلسلا علمياً لا يقبل الزيادة ولا النقص ولا يمكن من الاعادة أو التكرار او العدول من مرادف الى مرادف ، لان الترادف يندر ان يجيء في قضايا العلوم ، ولان التكرار بغير حرفية لايؤدي الى ذات المعنى المقصود .

وحيث يكون البحث في فلسفة مدنية ، أو في مسألة اجتماعية يكون الاسلوب مزيجاً من دقة موضوعية تقف عند المعنى وتترخص باستعمال الاسلوب الأدبي المشدود بالعبارات المنطقية الفلسفية .

وحين يكون الموضوع وجدانياً دينياً ساده التعبير الوجداني القائم على الاستجابة لكل ما يعمر به الوجدان من معان وجدانية ، مع اقتباس لبعض المصطلحات المنطقية والفلسفية التي لا يخلص منها وان تحدث بلغة الوجدان .

تلك ملاحظات انتهيت اليها بعد مراجعات لمصادر تاريخ الرجل وآثاره المأثورة له . وهي مصادر معروفة معلومة .

عبدالرزاق محيي الدين